من مشاكل التاريخ

مكتبة الأسكندرية

تأسيسها ورواية احراقها

للأستاذ خليل جمعة الطوال

(بقية المنشور فى العدد الماضى)

قال الأستاذ الشيخ عبد الوهاب النجار : ولكن متى علمنا أن عبد اللطيف البغدادى الذى كان قبل أبى الفرج بزمن قليل قد ذكر أن عمرو بن العاص أحرق مكتبة الأسكندرية كانت التبعة عليه دون أبى الفرج لاحتمال أن يكون أبو الفرج قد أخذ هذه المقالة عن عبد اللطيف البغدادي الذي رمى بهذه الجملة بغير سلطان أتاه . ولم يقل لنا من أى تاريخ أخذ ولا من أى مصدر استقى . والظاهر أنه حين علم بأنه كان فى هذا المكان مكتبة عفى الزمان على أثرها ، افترض أن الذى دمرها إنما هو عمرو بن العاص ، وربما شجعه على ذلك أقوال العامة أو نحو ذلك فظن الأمر حقيقة واقعة . . .

وقال الدكتور « غوستاف ليبون »[1] نقلا عن « لودفيك لالان » الذى ناقش مسألة إحراق مكتبة الاسكندرية مناقشة علمية مختصرة : إن أول مؤلف ذكر حريق العرب لهذه المكتبة هو عبد اللطيف الطبيب العربى البغدادى الذى توفى سنة ١٢٣١ م أى بعد ٥٩١ سنة من وقوع تلك الحادثة . أما من خصوص حريق مكتبة الاسكندرية المزعوم فانه همجية وعداوة للمدنية ، منافية لأخلاق العرب على خط مستقيم ، حتى إنه يمكن أن يسأل الانسان نفسه كيف أن قصة كهذه قبلها منذ زمن طويل كثيرون ممن يعتد بعلمهم ؟ وقد كذب العلماء هذه القصة فى زمننا مرات كثيرة فلا نرى حاجة فى العودة إلى تكذيبها ، ولا أسهل من الاستشهاد على ذلك بإيراد أقوال كثيرة جلية تثبت أن المسيحيين كانوا أعدموا الكتب الوثنية التى بالأسكندرية ، قبل العرب بزمن طويل وكسروا كل التماثيل أيضاً . ويفهم من ذلك أنه لم يكن بالأسكندرية بعد ما يحرق .

(١) Le Bon. Gustave: La Civilisation des Arabes. Paris 1884. وكتاب : تاريخ عمرو بن العاص للدكتور حسن ابراهيم حسن .

وأما أبو الفرج الملطي فقد نقل روايته عن جمال الدين القفطى وكان قد توفى قبله بنحو أربعين سنة تقريباً فى حلب أى عام ٦٤٦ هـ وقد ذكرها هذا فى نسخة خطية فى دار الكتب المصرية مكتوبة سنة ١١٩٧ م من كتاب له اسمه تاريخ الحكماء وإليك نص روايته :

« وعاش (يحيى النحوى) إلى أن فتح عمرو بن العاص مصر والأسكندرية ، ودخل على عمرو وقد عرف موضعه من العلم واعتقاده وما جرى له مع النصارى [1] فأكرمه عمرو ورأى له موضعاً وسمع كلامه فى إبطال التثليث فأعجبه ، وسمع كلامه أيضا فى اقتضاء الدهر فقهر به وشاهد من حججه المنطقية وسمع من ألفاظه الفلسفية التى لم يكن للعرب بها أنسة ما هاله . وكان عمرو عاقلاً حسن الاستماع صحيح الفكر فلازمه وكاد لا يفارقه ، ثم قال له يحيى يوما « إنك قد أحطت بحواصل الأسكندرية وختمت على كل الأجناس الموصوفة الموجودة بها ، فأما مالك به انتفاع فلا أعارضك فيه ، وأما مالا نفع لكم منه فنحن أولى به ، فأمر بالافراج عنه » فقال عمرو : « وما الذى تحتاج إليه ؟ » قال : كتب الحكمة فى الخزائن الملوكية ، وقد أوقعت الحوطة عليها ، ونحن محتاجون إليها ، ولا نفع لكم بها . فقال له : « ومن جميع هذه الكتب [2] وما قصتها ؟ » فقال له يحيى : « إن بطلوماوس فيلاذلفوس من ملوك الأسكندرية لما ملك حبب إليه العلم والعلماء وفحص عن كتب العلم وأمر بجمعها وأفرد لها خزائن فجمعت وولى أمرها رجلا يدعى بابن مرة (زميرة) وتقدم إليه بالاجتهاد فى جمعها وتحصيلها والمبالغة فى أثمانها وترغيب تجارها ففعل واجتمع له من ذلك فى مدة خمسون ألف كتاب ومائة وعشرون كتاباً

« ولما علم الملك باجتماعها وتحقق عدتها قال لزميرة ، أترى بقى فى الأرض من كتب العلم ما لم يكن عندنا ؟ فقال له زميرة « قد بقى فى الدنيا شىء فى السند والهند وفارس وجرجان ، والأرمان

(١) كان يوحنا قيساً قبطياً من الأسكندرية اشتهر عند المسلمين باسم (غرسا مايفوس) أى النحوى ، وكان يعقوبيا يعتقد بالتثليث ، ثم رجع عنه فأسقطه الأساقفة من منزلته ، وقد توفى كما أثبت بطلر قبل فتح العرب لمصر باربعين سنة تقريبا .

(٢) راجع : تاريخ الحكماء للقفطى ، ومختصر الأول لأبى فرج

وبابل والموصل وعند الروم. فعجب الملك من ذلك وقال له: دم على التحصيل . فلم يزل على ذلك إلى أن مات ، وهذه الكتب لم تزل محروسة محفوظة يراعيها كل من يلي الأمر من الملوك وأتباعهم الى وقتنا هذا » . فاستكثر عمرو ما ذكره يحيى وعجب منه وقال له « لا يمكنني أن آمر بأمر إلا بعد استئذان أمير المؤمنين عمر ابن الخطاب » . وكتب إلى عمر وعرفه بقول يحيى الذي ذكر واستأذنه ما الذي يصنعه فيها فورد عليه كتاب عمر يقول فيه « وأما الكتب التي ذكرتها فان كان فيها ما يوافق كتاب الله ففي كتاب الله عنه غنى ، وإن كان فيها ما يخالف كتاب الله تعالى فلا حاجة إليها فتقدم بإعدامها » فشرع عمرو بن العاص في تفريقها على حمامات الاسكندرية وأحرقها في مواقدها وذكرت عدة الحمامات يومئذ وأنسيتها فذكروا أنها استنفدت في مدة ستة أشهر فاسمع ما جرى واعجب[1] » اه

هذه هي الرواية التي نقلها أبو الفرج عن القفطي فيما بعد فتداولتها الألسن على علاتها ، وروج لها الشوبيون على أنها حقيقة لاغبار للشك عليها . وقد دحضها كل من جبون ، ولوبون وبطلر ، وسيديو ، وشبلي النعمان[2]

ولقد أعجبنا في دحض هذه الفرية دفاع الدكتور حسن ابراهيم حسن[3] إذ يقول: « ومما يدل على اختلاق رواية أبي الفرج ومن تقدمه ما ذكره بطلر ، إذ حال هذه الرواية تحليلا لايسع القارئ إلا أن يحكم ببراءة عمرو بن العاص مما نسب إليه ، والاعتراف بأن مكتبة الاسكندرية لا بد أن تكون قد فنيت قبل الفتح الاسلامي بمدة طويلة ؛ فذكر نقلا عن « اميانوس مارسينوس » أن السبعمائة الألف مجلد التي كانت تحتوي عليها مكتبة الاسكندرية قد أتلفت إتلافاً تاماً حين حوصر « يوليوس » قيصر الروم بالاسكندرية كما تقدم ، وممن أيّد هذا الرأي أورازيوس حيث اعتقد أيضاً أن هذه المكتبة قد دمرت في حريق يوليوس المذكور

وأضاف « بطلر » : « ومن سوء الحظ أن مثل جواب عمر قد ورد أيضاً بخصوص إحراق الكتب في فارس » . وقد علق الأستاذ « بري » بقوله : « إن شعور المسلمين نحو كتب الوثنيين الفرس يختلف اختلافاً تاماً عن شعورهم نحو كتب النصارى إذ كانوا يكرهون أن يتعرضوا لما فيه اسم الله[1] »

وإذا سلمنا جدلا بأن احتراق مكتبة الاسكندرية قد حصل فعلا كما رواه أبو الفرج الذي ذكر أن الكتب قد وضعت في سلات وزعت على الأربعة آلاف حمام ، وأنها ظلت تسخن مياهها ستة شهور ، فان هذا الخبر على مايظهر لنا عبارة عن أكاذيب وأضاليل لا حقيقة لها أصلا ، إذا قصد تدمير هذه الكتب حقيقة لأمر باحراقها في الحال ، ولم يكن عمرو بالرجل الساذج الذي يسمح بهذه الكتب تحت رحمة أصحاب الحمامات ، فلا يصعب بذلك على « يوحنا » أو أي إنسان سواه أن يستولي على قدر عظيم منها بثمن بخس ، ولدى يوحنا وغيره من عشاق الكتب ما يكفي لتحقيق هذه الأمنية وهي انتشال عدد كبير منها من مخالب النيران . على أن ماجاء برواية أبي الفرج من أن هذه الكتب كفت الحمامات ستة أشهر مما يثير الدهشة والاستغراب في نفوسنا لأنه لو قدر لكل حمام مائة مجلد في اليوم على الأقل (وعددها أربعة آلاف حمام) لبلغ هذا العدد الذي أحرق في ذلك الوقت (٧٢,٠٠٠,٠٠٠) مجلد وهو ضعف عدد مجلدات المكتبة الحقيقي بنحو ١٠٣ مرة تقريباً . ويستدل مما ذكر أن السبعمائة الألف مجلد لم تكن لتكفي الأربعة الآلاف حمام ساعة واحدة لاستة شهور[2]

وزاد على ذلك أستاذنا اسماعيل رأفت بك مؤيداً استبعاد وقوع هذا الأمر بقوله : « إن الكاغد بقطع النظر عن الرق وإن كان يصلح لا يقاد النار ، إلا أنه لا يصلح لبقائها متقدة أصلا »

وقد برهن بطلر على أن يوحنا النحوي الذي ذكره أبو الفرج في روايته لم يكن حياً يرزق وقت فتح الاسكندرية ، سنة ٦٤٢ م لأن يوحنا هذا كان قد اشترك مع «ديوسفوروس» و «جايوس» و « ساويرس أسقف أنطاكية » في الكتابة ضد مجمع خلقدونية، ويكون قد عاش في أوائل القرن السابع الميلادي : أي قبل سنة

(١) لم يذكر أحد هذه الرواية قبل البغدادي ، والأغرب ألا يذكرها الطبري والمسعودي ، وابن خلدون ، والبقولي وابن الأبكر ... الخ

(٢) و (٣) : تاريخ عمرو بن العاص للدكتور حسن ابراهيم حسن

Bury. J. B: History of the bter Roman Empire. London, 1889. (١)

(٢) فتح العرب لمصر لبطلر (بالانكليزية)

٦٤٢ م . ولا بد أن يكون قد مات قبل دخول عمرو الاسكندرية بثلاثين أو أربعين سنة ... الخ. وختم بطلر كلامه قائلا : لا أزال أقول إن احراق العرب لتلك المكتبة غير محتمل جداً ، لأن العرب لم تدخل الاسكندرية إلا بعد استيلائهم عليها بأحد عشر شهراً . وقد ذكر في عهد الصلح (مادة ٤ ، ٦) أنه يجوز للروم أن يحملوا إلى بلادهم كل أمتعتهم ، وفي غضون هذه المدة كان البحر مفتوحاً ولم تكن أمامهم أية صعوبة لحملها إلى بلادهم ، وما كان يصعب على يوحنا (بفرض وجوده) وأمثاله أن يقتنوا هذه الكتب قبل أن تقع الاسكندرية نهائياً في أيدي العرب . انتهى كلام الدكتور حسن ابراهيم حسن[1]

هذه هي المصادر والروايات الهامة التي يتعلق بها الشعوبيون في الحط من كرامة العرب والعاص ، وفيما سلف أن فصلناه الكفاية للدلالة على ضعفها وفسادها ، وأما بقية الروايات فانها قد أخذت عنها وتنطوي تحت حكمها

وأما عبارة حاجي خليفة وهي : « ويروى أنهم أحرقوا ماوجدوه من الكتب في فتوحات البلاد » فلا يصح أن تؤخذ حجة على العرب لأنه لم يذكر فيها اسم هذه المكتبة ، ولا أشار إليها ، ولكنه أراد أن يقول إن المسلمين في أول فتوحهم لم يعتنوا بالعلم لتعلقهم بالوحي وخوفهم من تسلط العلوم الأجنبية عليهم وعلى عقولهم .

ولقد اعتاد الناس إذذاك أن يقاوموا الأديان الجديدة المخالفة لعقائدهم ، فلما جاءت المسيحية قاومتها الوثنية مقاومة عنيفة ، وأوقعت بأتباعها مرّ العذاب ، وشديد التنكيل ، فلما ظهرت هذه عليها كالت لها الصاع صاعين ، وبادلتها الشر بمثله ، وكان المسيحيون يعتقدون إذ ذاك أن هدم المعابد والمياكل الوطنية شرط لازم لتأييد المسيحية ، ولذلك فان أباطرة الروم عندما تنصروا كان أول ما أمروا به هدم هياكل الأوثان في مصر وإحراقها بما فيها من الكتب . ولما كانت مكتبة الاسكندرية من آثار الوثنيين ومؤلفاتهم ، فليس هنالك مايبرر حرقهم إياها.

(١) ذكرت المجلة الفرنسية (دائرة المعارف ج ٣ ص ٦٤٨ أن مجموع المؤلفات التي كانت بالسيرابيوم قد أحرقها النصارى في القرن الرابع للميلاد

ولم يقتصر هذا الأمر على الكتب الوثنية فقط بل تعداه إلى جميع الكتب غير المسيحية ، فقد أحرق الكردينال كسيمنس جميع كتب المسلمين في غرناطة وكانت ثمانين ألف مجلد ، وأحرق الأسبانيون غيرها عشرات المكاتب الهامة في القرن السادس عشر كرهاً للعرب ، وفي القرن الثاني عشر أتلف الصليبيون معظم مكتبة طرابلس ، وكذلك يوم أمر ضجيل باحراق كتب[1] دار العلم فيها وكانت تقدر بأكثر من مائة ألف مجلد .

ونحسب بعد هذا أن قد وفينا الموضوع حقه من البحث ، في دحض هذه الفرية الشائنة التي لفقها بعض المستشرقين على العرب تلفيقاً ، وأننا قد بلغنا بالقارىء حجة الاقناع . وسنتقدم في مقال آت لدحض فرية أخرى عن الاسلام لا تقل عن هذه شناعة . وسنواصل نشر هذه البحوث في الرسالة العزيزة حتى يتم طبع كتابنا في الدفاع عن الاسلام ، وبذلك نكون قد وضعنا تحت متناول القارىء ما يساعده على مجابهة الخصوم ، ونكون قد أدينا لهذه الأمة العزيزة بعض ما أخذنا على عاتقنا عبئه ، وأنجزنا بعض ما سجلته علينا الرسالة العزيزة من الوعود القاطعة .

خليل محمد الطوال

(١) راجع : الاسلام والحضارة العربية جزء ١ لمحمد كرد علي .

وحي بغداد

صور وجدانية وأدبية واجتماعية

بقلم الدكتور زكي مبارك

يطلب من المكاتب الشهيرة

وثمن النسخة عشرة قروش